المبحث الثالث
شعر الطبيعة

هذا ميدان آخر أخصبت فيه قرائح الأندلسيين وحلقوا في اجوائه تحليقاً ولذلك عده كثير من الدارسين مناطاً للتجديد وموضوعاً ابدعوا فيه . وامتازوا على الشعر المشرقي من حيث ان الجديد هو انعكاس للبيئة الجديدة وتفاعل معها . وهو عند الدكتور بدير متولي حميد لون من ألوان ثلاثة تفوق فيها الأندلسيون هي شعر الطبيعة وشعر الحب والشعر الحزين[١]. ولعل بلداً عربياً لم يكثر شعراؤه من تشخيص عناصر الطبيعة على نحو ما اكثر شعراء الاندلس[٢].

وقف دراسو الشعر الأندلسي كتباً او فصولاً في دراسة هذا اللون . وخصائصه وسماته . وابرز شعرائه[٣]. إن الشخصية الأندلسية مهما كانت مرتبتها العلمية والاجتماعية كانت تذوب وتتلاشى كلما التقت بالطبيعة أو واجهتها . اذ لا تمتلك غير الاستجابة لها . ملبية دعوتها الى الاستمتاع بما تزخر به من مفاتن[٤]. فقد شغل شعر الطبيعة الناس جميعاً . خاصتهم وعامتهم . ملوكهم وسوقتهم[٥].

---

(١) قضايا اندلسية ١٢١

(٢) فصول في الشعر ونقده ١٥٨

(٣) ومن هذه الدراسات : الطبيعة في الشعر الأندلسي للدكتور جودة الركابي ، والشعر والبيئة في الاندلس للدكتور ميشال عاصي ، ومن الرسائل الجامعية ، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر للدكتور سعد شلبي القاهرة ١٩٧٨ ، والطبيعة في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين ، للباحث محمود منصور ، عمان ١٩٨٥ ، ومن الدراسات التي أفردت فيه فصولاً ، دراسة الدكتور سيد نوفل في شعر الطبيعة في الادب العربي ١٩٤٥ ، والدكتور بدير متولي حميد في قضايا اندلسية ١٩٦٤ والدكتور مصطفى الشكعة في الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه ١٩٧٤ ، والدكتور عمر الدقاق في ملامح الشعر الاندلسي ١٩٧٥ ، والدكتور عبد العزيز عتيق في الأدب العربي في الأندلس ١٩٧٥ شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي ، د . سليمان العطار القاهرة ١٩٧٣ .

(٤) في الشعر الاندلسي ص ١٨ ، الدكتور عدنان صالح مصطفى دار الثقافة ـ الدوحة ١٩٨٧

(٥) قضايا اندلسية ١٤٤

ونحسب أن التأثر بالطبيعة . تجاوز الشعر والنظم الى النثر بل الى الحياة الثقافية عامة . فمن الرسائل النثرية رسالة ابي حفص بن برد الى ابي الوليد بن جهور يصف فيها خمسة اصناف من النواوير هي ، الورد ، النرجس ، البنفسج ، البهار ، الخيري النمام وغرضه تفضيل الورد من بينها وقد اطلع ابو الوليد الحميري على هذه الرسالة فأحب أن يحاكيها فجعل المجلس سبعة انواع من الزهور هي الخمسة المتقدمة وأضاف عليها الاقحوان والخيري الاصفر . وغايته تفضيل البهار على الورد ووجهها الى القاضي المعتضد بن عباد . وكلتا الرسالتين جاء في كتاب البديع[1] .

وقد شاعت القطع الشعرية والنثرية في المفاضلة بين نور ونور مما كان يجر الى النقاش والجدل . ونشأ ضرب من المعارضات في مجال ذكر نواوير الربيع على نحو ما حصل بعد أن نظم ابو الحسن على بن ابي غالب الاستجى قصيدته الضادية معارضة ستة شعراء هم ابو الوليد الحميري ، وابو بكر بن القوطية ، وابو جعفر بن الابار ، وابو بكر بن نصر ، وابو الاصبع بن عبد العزيز ، ومحمد بن عباد القاضي الذي توجهت اليه قصائد الشعراء المذكورين آنفاً[2]

ويرى الدكتور احسان عباس أن هذه المقطعات الصغيرة في وصف صنوف الازهار تمثل (بطائق) المهاداة بين الأصدقاء . وليس لديهم من غاية سوى طلب الصورة المبتكرة[3] . وقد وجد الدكتور حميد في هذا الاتجاه ضرباً من التخصص ، لا سيما أن الشاعر يختار زهوة واحدة لينظم فيها[4] .

ونلحظ أثر الطبيعة كذلك في العناوين التي اختاروها لكتبهم فمن ذلك : الحدائق لابن فرج الجياني (ت ٣٦٦ هـ) و « حديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح » لابي عامر بن مسلمة[5] والحديقة لأميه بن ابي الصلت الحكيم (ت ٥٢٩ هـ) ، والطير ليوسف بن هارون (ت ٤٠٣ هـ) والبديع في وصف الربيع لابي الوليد الحميري (ت ٤٤٠ هـ) وزمان الربيع لأبي بكر الخشني الجياني .

---

(١) ينظر البديع ٥٢ ، ٥٨

(٢) البديع ٤٠ — ٤٩

(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٩٧

(٤) قضايا اندلسية ١٥١

(٥) الذخيرة ٢ / ١ / ١٠٦

المعروف بابن ابي ركب (ت ٥٤٤ هـ[١]) ، والروض المعطار في خبر الاقطار لابن عبد المنعم الحميري (ت ٧٢٧ هـ) ، وروضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ، ونفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، وازهار الرياض في اخبار عياض ، وروضة الآس العاطرة الانفاس للمقرى (ت ١٠٤١ هـ) وكتاب البستان للزياني ، كما نجد شيوع تسمية الحرائر والجواري بأسماء الزهور ، ومن هذا ماروى من ان المنصور بن ابي عامر كان قد سمى بناته بأسماء الزهور . فنظم الشعراء في وصف الزهور لتبيين فضيلة كل نوع منها وهم في هذا يحكون خصائص بنات المنصور[٢] .

عرفت الاندلس شعر الطبيعة منذ عهد مبكر ، فقد عارض ابن ابي عبده ، وزير عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد ، وانشد ابو مروان الجزيري (ت ٣٩٤ هـ) قصيدته على لسان بهار[٣] العامرية ، وكان يوجه رسائله الى المنصور على السنة كرائمه بزهور رياضه[٤] .

حدق الحسان تقر لي وتغار وتضل في صفتي النهى وتحار

ولابن عبد ربه وابن شهيد وابن حزم قصائد متفرقة في وصف الطبيعة .

وفي عصر الطوائف والمرابطين يزدهر هذا الموضوع ، ازدهار موضوعات الشعر الأخرى بحيث يؤلف نسبة عالية عند الشعراء ، فقد خرجوا على العرف السائد بالوقوف على الاطلال في مطالع القصائد واستهلوها بشعر الطبيعة . ليس هذا فحسب اذ قلما يرد وصف الطبيعة مفرداً عن موضوعات الشعر الاخرى الا لدى عدد قليل من الشعراء ، وخير من يمثل هذا الامتزاج ابن زيدون في قصيدته القافية المشهورة التي يقول فيها[٥] :

---

(١) رايات المبرزين ٤٠

(٢) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١١١

(٣) الذخيرة ٤ / ١ / ٤٨

(٤) يطلق الدارسون على شطر من شعر الطبيعة ، مما يعني بوصف النور او الزهر تسمية « النوريات » ولغزارة ما كتب في هذا اللون ، كتبت دراسات عنه منها رسالة الدكتور كميل ناشف : شعر النوريات بين المشرق والاندلس جامعة القديس يوسف ١٩٨٤ ، وبحث للسيد مقداد رحيم خضر بعنوان « تاريخ النوريات في الشعر العربي في المشرق وفي الاندلس ، مجلة آداب المستنصرية العدد ١١ ، ١٩٨٥ ص ١٩٩ ـ ٢٢٥ واقدم منهما ما كتبه د . احسان عباس في تاريخ الادب الاندلسي / عصر سيادة قرطبة ص ١٠٦ ـ ١١٢

(٥) ديوان ابن زيدون ١٣٩

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق . ومرأى الأرض قد راقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما شققت عن اللبات أطواقا
نلهو بما يستميل العين من زهرٍ ... جال الندى فيه ، حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقي ... بكت لما بي . فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين إشراقا

لقد أثرت هذه القصيدة في الشعراء وتجاوز أثرها الشعراء العرب الى شعراء الطبيعة الغربيين الذي يربطون بين الطبيعة والحب[١] . فاذا كانت هذه القصيدة تستحوذ على اهتمام الادباء اعجاباً بها فان من الباحثين من شخص ظاهرة تدعو الى التأمل والدراسة تتمثل في اننا لا نكاد نجد لابن زيدون في الطبيعة الأندلسية الساحرة مقطوعة واحدة فضلًا عن قصيدة كاملة تستقل بنفسها يصف فيها شيئاً من مظاهر الطبيعة[٢].

ان شعر ابن زيدون كله ـ كما يرى الدكتور ناصر الدين الاسد ـ يكاد يكون افوافاً من الطبيعة موشاة نسجتها يد صناع[٣]، أبدعت تصوير حواشيها وابراز نقوشها . ولكن كيف يعلل هذا الاهمال في شعره ؟

الحق انه ليس اهمالاً للطبيعة بل إننا نلاحظ تفاعل الشاعر بها حتى امتزجت بعروقه وخالطت بشاشتها روحه الشاعرة ، وعادت الطبيعة ذوباً من عواطفه ، وحواسه ، بحيث لم يكن يحس بالطبيعة ومظاهرها معزولة وحدها احساساً منفصلًا مستقلًا قائماً بذاته حتى يفردها في قصائد ومقطوعات ، انما كان إحساسه بالطبيعة جزءاً من إحساسه العام بالجمال ممزوجاً بإحساسه بالمرأة وشعوره بها .. ومن ذوب هذه الاحاسيس صاغ شعره في الغزل والتشوق والتذكر والمناجاة والشكوى والوصل والهجر[٤] .

وبعد أن كان الشاعر في العصور السابقة بالاندلس يقلد ويعارض في روضياته ، قويت فيه النزعة واستحكمت بحيث أصبحنا نقرأ في أشعاره شخصية الشاعر المتفاعل مع بيئته وبذلك استطاع أن يحقق امتيازاً على الشاعر المشرقي ، بقدر امتياز

---

(١) مقدمة ديوان ابن زيدون ٨٢

(٢) ليس في شعر ابن زيدون ، بحث الدكتور ناصر الدين الاسد ، مجلة الكتاب العدد ١١ ، ١٢ ، بغداد ١٩٧٥

(٣) نفسه ٥٩

(٤) نفسه ٦٠

الطبيعة الأندلسية التي سكبت في روع الشعراء ، فأقبلوا ينهلون من رضابها ، ويرشفون من حلابها ، وخالطت نفوسهم بشاشتها ، استمع الى ابن خفاجة[1] :

إن لـــلـــجـــنة بالأندلـــس ... مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ... ودجى ليلتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صباً ... صحت واشواقي إلى الاندلس

لقد استحوذ جمال الأندلس على حواسه وجوارحه فصاح من فرط اعجابه « واشوقي » ولم لا ؟ وهو يرى في الطبيعة صورة من صور جنة الخلد التي وعد الله عباده يوم القيامة[2] :

ياأهل أندلس لله دركم ... ماءٌ وظلٌ وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ... وهذه لو كنت خيرت أختار
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تدخل بعد الجنة النارُ

ان النصين المتقدمين آنفاً ، بطاقتا تهنئة ازجاهما شاعر الطبيعة للاندلس فخلد بهما جمالها على مر العصور ، ولا يقل عنه شأناً بل ربما يضاهيه ابن اللبانة في مقطعة يصف فيها ميورقة احدى جزر البليارد في البحر الأبيض المتوسط[3] .

نزل الحيا بنزوله في معهد ... لبس المسرة ربعه المأنوس
فـــكأنـــما ماء الـــغـــمام مدامةٌ ... وكأن ساحات الديار كؤوس
بـــلد اعارتـــه الـــحـــمامة طوقـــها ... وكساه حلة ريشه الطاووس

والأبيات تذكر بما يرويه المقرى في نفحه من أن هارون الرشيد حين مثل بين يديه رجل مغربي لامر ما قال مدلاً بسعة سلطانه وعلو شأنه ،

« يقال ان الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب ، فأجابه المغربي ، صدقوا يا أمير المؤمنين وإنه طاووس[4] .

والطبيعة تترك أثراً في مخيلة الشاعر حتى يستخدمها في موضوعات الشعر كافة ، فمما جاء في مدحة ابن اللبانة قوله[5] :

---

(١) ديوانه رقم ٨٨
(٢) ديوانه رقم ٢٠١
(٣) ديوانه بتحقيقنا ، ق ٤٢ .
(٤) النفح ١ / ٢٢٨ وينظر تيارات النقد الاندلسي ٨٤ ـ ٨٥ .
(٥) ديوانه ق ١٧ .

هو صبحٌ وربيعٌ وحيا يجتلى او يجتنى او يجتدى

واذا اصيب الممدوح بسوء فإنّ الكون والطبيعة يشاركانه هذا المصاب[1]:

شكا لشكواك حتى الشّمس والقمر وفاتَ درّ الدّراري الزهر ينتشرُ
وراحت الرّيح لا يذكو لها عبقٌ وأصبح الرّوض لا يندى له زهر
وقلّص الظّل في فصل الرّبيع لنا فكادت الأرض الرمضاء تستعر
والماء غاض لنا غيضاً فما نبعت عين ولا سال في بطحائها نهر
والسّحب صاحبها ذعرٌ فما نشأت ولا استهل لها فوق الرّبا مطرُ

وشعر الطبيعة يمثل لنا مدى تعلّق الأندلسيين ببيئتهم الجديدة. فاتجهوا يصفون صُنع الله في الكون فجمال الطبيعة كان أهم باعث على قول الشعر فيها. وقد تفاعل الشعراء معها في حاليهم سعدهم وحزنهم. سرورهم وأساهم .. وابن خفاجة في مقدمتهم. ملأ جمال الدّنيا عينيه فمال بكلّيته اليه[2]. ومن هذه الألوان في الطبيعة الصامتة ما قاله في الروض والشجر: كالاراك. والبان. والسلم. والريحان. والسدر والد فلى والرند ... ومن الأزهار: النارنج والريحان. والورد. والشقيق والنيلوفر والاقحوان. والعرار والخزامي والنرجس والسوسن والبنفسج. ومن الثمار: النارنج. والتين. والعنب. والرمان. وفي الغصون. والربى. والبطاح. والجبال. والانهار. والبحر. والغمام. والمزن. والندى. والسيل. والبرد. والثلج. والبرق. والرعد. والشمس. والقمر. والنجوم. والليل والنهار ...

كما نجد الطبيعة الحية بالوانها في وصف الحيوان .... وقصائد في وصف الادوات والآلات كالسيف والرمح والأبنية والقصور .... والطعام والشراب ومن هنا فالشاعر متجه الى التخصص في الشعر لا سيما في الازهار اذ يفرد في كل نوع ابياتاً.

ولم يكن ابن خفاجة بدعاً في ذلك فان ابن حمديس الصقلي لم يقل مقامه عنه حيث يقرر الدكتور احسان عباس أن الوصف موضوع كبير جداً في ديوانه. وللبيئة الصقلية اولاً والاندلسية ثانياً اثرهما في ابرازه على هذا النحو. وهو يشمل عناصر كثيرة فهناك وصف الطبيعة من انهار وغدران وسواق واشجار وازهار كالنيلوفر والشقائق وفواكه كالنارنج وسحاب وبرق ورعد وبحار .. ووصف الحيوانات والحشرات. كالأسد والناقة والزرافة والعقرب والبق والبعوض والذباب .. »[3]. الا

---

(١) ديوانه ق ٢٤.

(٢) الشعر الاندلسي ـ كنون ٢٨٥

(٣) مقدمة الديوان ص ١٩ قصيدتان له برقم ٥٦ و ٥٧.

ان الدكتور احسان عباس لا يلمس تعاطفاً بين الشاعر والطبيعة ، وهو رأي فيه نظر ، لاسيما لمن يستقرئ شعره .

غلبت على شعر الطبيعة فنون البديع والبيان . فجاء مثقلاً بالتشبيهات والاستعارات « مترعاً بالاخيلة (بل كان مثقلاً بها حُمل منها فوق ما يطيق ... وكما يحدث لشجرة مثقلة بالثمار اذ تسقط عنها الثمرات واحدة فواحدة .. »[١]

وتكثر المحسنات البديعية في شعر الطبيعة كما تكثر الصور البيانية ممثلة في التشبيه والاستعارة والكناية على نحو ما نجد في شعر ابن اللبانة حيث يقول[٢] :

والوردُ تحت الطَل فيها مشبه ... خدًا يذوبُ من الحياء فيقطر
وكأن نرجسها أصيب بروعتي ... فعلاه لون مثل لوني أصفرُ
فكأنما الرَيحان روحي كلّما ... تتغير الاشياء لا يتغيرُ

وقد نظروا الى الطبيعة الى أنها حية تشاطرهم الحياة ويشاطروها حياتها فشخصوا لنا الامور المعنوية فمنها قول ابن حمديس يرثى جاريته « جوهرة » :

يا باقةً في يميني بالردَى ذَبُلت ... أذاب قلبي عليك الحزن والأسف
ألم تكوني لتاج الحسنِ جوهرة ... لمّا غرقت فهلا صانك الصَدف

وظاهر البيتين أنهما في باقة ذبلت ، لكن النظرة المتأملة ، لا تلبث أن تعيدهما الى سياقهما مستعينة بالقرائن على ذلك ، ومنها « جوهرة » و « غرقت » ، واما « جوهرة » فقد أوردها على صفة التورية ، إذ هو لا يريد الحجارة الثمينة بل جاريته التي ابتلعتها مياه البحر ولم تصنها اصدافه وانما أورد الشاعر « الباقة » على سبيل الاستعارة التصريحية[٣] .

ولابن حمديس أبيات في هجاء باقة جميلة لكنها خالية من العطر[٤] :

وباقةٍ مستحسن نورها ... وقد خلت في الشَم من كل طيب
كمعشر راقتك اثوابهم ... وليس في جملتهم من اديب

---

(١) الشعر الاندلسي غومس ٢٦ .
(٢) ديوانه ق ٢٤ .
(٣) ديوانه ق ١٩٦ وينظر البحر في شعر الاندلس والمغرب ص ٣٦ .
(٤) ديوانه ق ٢٠ .

ونراه في موقف آخر يحنو على زهرة النيلوفر » لأنه وجدها غريبة مثله فيقول :

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه كلانا عن الأوطان أزعجه الدّهر[1]

ومادمنا نستعرض النصوص الشعرية ذات الامتياز ، والتفوق فإنا نجد قصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل رائعة مشهورة ، نطقت عن هذه المشاركة الوجدانية للطبيعة يبدؤها بالحكمة والاعتبار ، ويصور حالته النفسية واضطرابه حتى يبلغ البيت العاشر فيصف الجبل :[2]

وأرعنَ طمّاحِ الذّؤابة باذخٍ يطاولُ أعنان السّماء بغاربِ
يسدّ مهبَ الرّيح عن كلّ وجهةٍ ويزحمُ ليلاً شهبَه بالمناكبِ
وقورٌ على ظهرِ الفلاة كأنه طِوال اللّيالي مُطرِقٌ في العواقبِ
يلوثُ عليه الغيمُ سودَ عمائمٍ لها من وَميضِ البَرقِ حمرَ ذوائبِ
أصختُ اليه وهو أخرسُ صامتٌ فحدّثني ليلُ السّرى بالعَجائبِ

أعجب النقد الحديث بالقصيدة ، وأعرب الباحثون عن استحسانهم أياها فقال عنها الدكتور جودة الركابي[3] : انها نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم ، وقال عنها الدكتور محمد رجب البيومي[4] انها جاءت نسقاً شعرياً متكاملاً ذا شعاب وافانين ، ولو ذهب جميع ما قاله ابن خفاجة وبقيت وحدها ، لكانت معجزة إبداعه ، ودليل تفوقه ! .. وقد كانت لنا وقفة سابقة عند هذه القصيدة وأخت لها في وصف القمر ، حيث لاحظنا نزعة اسلامية صوفية تلابسهما[5] .. وفي ترجمة حياته .. وأشعاره .. ما يعزز هذه النزعة[6] .

رأى بعض الباحثين ان ابن خفاجة استوحى في هذا التصوير مخاطبة مجنون ليلى لجبل التوباذ[7] .. وفرق كبير بين الشاعرين في قصيدتيهما .. لأن قول المجنون خطرة عابرة ، لو وقف عندها ابن خفاجة ما بلغ هذا النفاذ .. ولو كان المجنون ـ على سبيل المثال ـ موحياً موجهاً لكان لابن خفاجة فضل أثير ، أن يكون موضع هذا الايحاء ، وقد عبرت القرون خلف المجنون ، وتوالى عشرات الشعراء في العربية شرقاً

---

(١) ديوانه ق ١١٣

(٢) ديوان ابن خفاجة ق ١٦٤

(٣) الطبيعة في الشعر الاندلسي ٢٦

(٤) الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ، ٧٨

(٥) الاتجاه الاسلامي ٤٩٩ وما بعدها

(٦) بغية الملتمس رقم ٥٠٢ ، ديوانه ق ١٤

(٧) فصول في الشعر ونقده ١٥٨

وغرباً دون أن يبدع أحدهم في وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة[1] .. ومن الشعراء الذين تأثروا بهذه القصيدة الرصافي البلنسي في رائيته المشهورة[2]

واذا كنا قد تمثلنا النصوص لشعرية أنماطاً في وصف طبيعة الأندلس ، فإن جلها كان حول الطبيعة الصامتة ، ولنا أن نتمثل على الطبيعة الحية ، أو وصف الحيوان فإنه من الموضوعات التي نظم فيها الشعراء الاندلسيون ، وأكثروا فيها على نحو واسع ، ومن أبيات ابن شهيد التي اختصها بوصف النحلة على نحو دقيق ، وبراعة متناهية يقول[3] :

وطائرةٍ تهوى كأن جناحها ... ضميرٌ خفيٌ لا يحدّده وهمْ
ملازمةٍ للروض حتى كأنّما ... لها كلّ ما تفترّ عنه الربى طُعمْ
تمج بفيها الشّهد صرفاً ويختفي ... لمشتاره ما بين أحشائها سهم
منافرةٍ للانس تأنس بالفلا ... مفرّقة للشّهد من بَعضها السّم
فإدناؤها رشدٌ ، وهتكُ حجابها ... اذا احتجبتْ في غير أيامها ظُلم

« والصورة تعتمد قدراً غير قليل من التفصيل ، وبسط القول في صفات هذا الحيوان في مظهره ومخبره وتحركه وطيرانه ، وحتى في طباعه »[4]

وقد سقنا بين يدي البحث نصوصاً شعرية تمثل عصور الاندلس المختلفة وقد آن لنا أن نتوقف عند عهدي الموحدين وبني الأحمر ، ولعل خير من يمثل العهد الأول شاعران هما ابن سهل الاندلسي (ت ٦٤٩ هـ) وابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٤ هـ) ، وكانا صديقين ، وكثيراً ما كانا يتشاركان في نظم القصيدة الواحدة ، ويجيز أحدهما للآخر ، وكانا بلديين ، وكانت أشبيلية من أغنى المدن الاندلسية بمنتزهاتها ومنها : السلطانية والعروس ، وفم الخليج ، ومرج الفضّة ، وشنّبوس ، وقصر حسّان ، والفنت وجنّة قشتيلة .[5] وشرق اشبيلية وادي الطلح ، وفيها مدينة طريانة وتيطل .[6]

---

(١) الادب الاندلس بين التأثير والتأثر ٧٨ .
(٢) ديوانه ق ٢٤ ، وتنظر مقدمة الديوان ١٨
(٣) ديوانه . ق ٦٠١ .
(٤) وصف الحيوان في الشعر الاندلسي ١٧٩ .
(٥) مقدمة ديوان ابن سهل ص ١٦ د . احسان عباس .
(٦) نفح الطيب ٢ / ٢٨٥ ، ١ / ١٨٢ .

فمن ذلك قول ابن سهل في رائيته التي يعارض فيها رائية ابن عمار التي اشرنا اليها في شعر المديح .[1]

الأرض قد لبستْ رداء أخضرا ... والظّل ينثرُ في رُباها جَوهرا
هاجتْ فخلت الزّهر كافوراً بها ... وحَسيتَ فيها التّربَ مسكاً اذفرا
وكأنّ سوسَنها يصافحُ وردَها ... ثغرٌ يقبّل منه خَداً احمرا
والنهرُ ما بينَ الرياضِ تخالُه ... سَيفاً تعلّق في نِجادٍ أخضرا
وجرتْ بصفحتهِ الصّبا فحسبتُها ... كفا تنمّق في الصحيفة أسطُرا
وكأنّه إذ لاح ناصعُ فِضّة ... جعلته كفّ الشّمس تِبراً أصفرا

ويقول ابن سعيد ذاكراً وادي الطلح .[2]

سائلْ بوادِي الطّلح ريحَ الصّبا ... هل سُخرتْ لي في زمانِ الصّبا

واذكر بوادي الطّلح عهداً لنا ... لله ما أحلى وما أطيبا
بجانب العطف وقد مالت الا ... غصانَ والزّهرُ يبثّ الصّبا
والطيرُ مازتْ بين ألحانها ... وليس الا مُعجباً مطرِبا

ولم يكن شعراء بلنسية ـ في عهد الموحدين ـ أقل اعتباراً بالطبيعة وتأملها . وممن نظم فيها ابو المطرف بن عميرة . فاستمع اليه يصف نزهة في نهر شقر ،

خذ في حديثك إن وصفكَ يطربُ ... عن يوم إنسٍ ذكرهُ مستعذَب

وبعد هذه الوقفة المتأنية عند شعر الطبيعة في الأندلس ـ الحية والصامتة ـ نخلص الى أبرز الخصائص الفنية التي اتسم بها .. ، ففيما يتصل بأساليبهم ولغتهم ،

- استخدموا فنون البديع على صورهم ، من طباق وجناس ومقابلة ومبالغة ، وكان ولعهم بحسن التعليل سمة واضحة في اشعارهم[3]
- كذلك افادوا من فنون البيان ، من تشبيه واستعارة وكناية ... وكانت عوامل مهمة في بناء الصورة الفنية لقصائدهم فقد استنفذوا طاقاتهم ـ ما اتسعت ـ بقصد الأتيان بالصور المبتكرة والمستحدثة والطريفة ولذلك غلبة سمة التشخيص والتجسيم في قصائدهم والمراد بهما نسبة صفات البشر الى افكار

---

(١) ديوانه ق ٥٤ ص ١٦٢ .
(٢) النفح ٢ / ٥٨٥ .
(٣) قضايا اندلسية ص ٧٧ ، ١٤١ .

مجردة أو الى اشياء لا تتصف بالحياة .[1] ولأن الذوق السائد في العصر كان له اثر كبير وجدنا سمات التشخيص والتجسيم مجردة من التعاطف الوجداني القائم على استبطان مظاهر الطبيعة والتعمق في تأملها عل نحو ما نجد عند ابن خفاجة في قصيدة بوصف الجبل . وقد تجلى هذا الاتجاه في عصر النهضة واطلق عليه المذهب الرومانتيكي .

تأكيدهم على الالوان في الصور الفنية التي رسموها وكذلك الكلمات الدالة على الحركة[2] على نحو ما نجد في قصيدة ابن سهل التي عارض بها ابن عمار . وعلى نحو ما نجد في قول[3]

والشمس قد ألقتْ عليه رِداءَها فتراهُ يرفلُ في قَميصٍ أصفرِ

أو في قول ابن سعيد :[4]

والشمس قد رَقَمَتْ طِرازاً فوقَـه فكأنَـما هي حلةٌ زرقـاء

- كذلك غلبت على أساليبهم سلاسة الاسلوب في أكثر أشعارهم ، وميل بعضها الآخر الى جزالة الالفاظ ومتانة التراكيب . ومن الضرب الأول ، المقطعات الشعرية التي مرت بنا في سينية ابن خفاجة ورائيته . « ان للجنة بالاندلس » و « يا أهل أندلس » .

وفيما يتصل ببناء ، قصيدة شعر الطبيعة نلاحظ تبايناً فيها حيث ترد في صيغة مقطعات قصيرة وقصائد طويلة وموشحات . وفي الضرب الأول يقتصر على موضوعه ، واما في القصائد فتمتزج بموضوعات أخرى كالغزل والمديح ووصف المجالس والشوق والحنين والرثاء . وكذلك يمتزج بها في الموشحات .

وفي مجال الموازنة بين شعري الطبيعة في الاندلس والمشرق ، اعتمد المشارقة على العقل والتفكر في وصفهم فكانت صورهم اعمق واقوى من الاندلسيين الذين اعتمدوا على الحس والذوق فكانت صورهم اجمل واوضح[5] .

---

(١) الادب في عهد المرابطين ٩٦ .

(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب ص ١٠٢ .

(٣) ديوانه ، ١٦٦ .

(٤) نفح الطيب ٢ / ٢٦٣ .

(٥) قضايا اندلسية ١٤١ .

وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع في الشعر الأندلسي وكثرة ما انشأ فيه الشعراء على امتداد عصور الاندلس فأن الكتب والمصنفات التي الفت فيه لم تقع بين ايدينا ، باستثناء كتاب واحد هو البديع في وصف الربيع لأبي الوليد اسماعيل الحميري (ت ٤٤٠ هـ)[١] فقد قرر المؤلف في التمهيد بأن فصل الربيع آرج وأبهج وآنس وأنفس وأبدع وارفع من ان يحد حسن ذاته ويعد بديع صفاته ، وعلى الرغم من ذلك فأنه لم يعن بتأليفه احد .[٢]

اختص كتابه بنتاج عصره من اهل الاندلس لأن نتاج المشارقة ـ كما يرى ـ قد كثر الوقوف عليه والنظر اليه حتى ما تميل نحوه النفوس وقد انتظم في ثلاثة فصول هي :

اولا : القطع التي لم يسمّ فيها نور .

ثانيا : القطع التي لم تنفرد بوصف نوار بل اشتملت على وصف نورين أو أكثر .

ثالثا : القطع المتفردة كل واحدة بنور .

وأما الدراسات الحديثة فأنها لم تفِ على نحو ما ينبغي فقد جاءت دراسة الدكتور جودة الركابي موجزة مختصرة في حوالي خمسين صفحة وله فضل السبق في دراسته الا ان ما يتخونه التتبع والاستقصاء والتحليل والاستنباط اذ جعله في اربعة فصول تحدث في اولها عن شعر الطبيعة في الادب العربي وثانيها يدور حول بواعث شعر الطبيعة في الاندلس واشهر اعلامه والاطوار الثلاثة التي مر بها في قرونه الثمانية وجاء الفصل الثالث فقد تحدث فيه عن خصائص وصف الطبيعة في الشعر الاندلسي أجمل الدكتور الركابي هذه الخصائص في تسع نقاط .

اما الفصل الرابع فلمنتخبات من شعر الطبيعة لابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة ونصوص أخرى لغيرهم ، ولعل ميزة الكتاب ، ان المؤلف حاول ان يدلل بأن الاوربيين لم يمتازوا علينا بشعر الطبيعة كما يزعم عدد من الدارسين .

---

(١) حققه هنري بيرس بعنوان (البديع في فصل الربيع) ط معهد العلوم العليا المغربية ١٩٤٠ تنظر دراسة الدكتور محمد مجيد السعيد (الحميري وكتابه البديع) مجلة آداب المستنصرية العدد ١٠ ، ١٩٨٤ .

(٢) البديع ص ١ .

ومن الدراسات الحديثة المتخصصة دراسة نهض بها الدكتور حازم عبدالله خضر[1] تحدث فيها عن الطبيعة الحية في عصري الطوائف والمرابطين وجاءت في بابين تناول في اولهما استعراض النماذج الشعرية في وصف الخيل والأبل ونعوت الاسد والذئب وكلاب الصيد ثم اوصاف الحمام وختم الحديث في نعوت الطيور الجارحة والزواحف . وفي الباب الثاني وقف عند الخصائص والسمات الفنية لهذا الشعر في بناء القصيدة ودلالة الموضوعات على نفسية الشاعر وشخصيته وابرز ملامح المجتمع والبيئة الاندلسية وجمل النتائج المهمة التي تمخض عنها البحث خاتمة لكتابه .

---

(١) وصف الحيوان في الشعر الاندلسي ط وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٨٧ .

(٢) نفسه ٢١٠ وما بعدها .